

هذا ميدان محفوف بالمخاطر ، فان فهم الطبقات النفسية للفرد امر بحد ذاته عظيم الصعوبة وان محاولة الانتقال بالنظريات السايكولوجية من نطاق الفرد الى نطاق المجموعة تنطوي على مجازفة بينة ولا سيما عندما ن فكر بمشكلة الانتقال والوراثة . ولكن فرويد كان من اول من ذهب ، وبحق ، الى ان مشاكل الوراثة في البيولوجيا لا تنطبق على علم النفس الجماعي . وعلى كل فان صحة او بطلان التفسير لا يبطل وجود العلة وانما يؤكد على وجودها .

من الوقائع التي نجعلها منطلقا لنا ظاهرة الاثم التي تصاحب الوجود اليهودي (يجب ان نحاذر من الخلط بين نفسية المجموعة ونفسية الفرد فسلوك الافراد واقوالهم لا تعبر عن المجموعة بالضرورة) . لقد اشار الاستاذ ماكس فيبر بعد استعراضه للفضيلة والرذيلة في مصر ويهودا الى ان الفرق الاساسي بين اخلاقتي الطرفين هو فكرة الاثم التي تطغى على الديانة اليهودية (٣) . واصبح الاثم الفكرة التي تلتقي عندها آراء اليهود وغير اليهود في حديثهم عن الوجود اليهودي ولم تفرق الا في التفسير . فنتش اعداء السامية عن مصدر الاثم في الاعمال الشريرة التي نسبوها الى اليهود . ورات الكنيسة ان صلب المسيح هو الاثم الابدي الذي يظل يحمله اليهود . وانبرى سيغموند فرويد ففتش عن تفسير جديد للظاهرة في رسالة « موسى والتوحيد » قائلا ان الذنب الابتدائي الذي وقعوا به هو قتلهم موسى في سيناء ، كما افترض . ونعطي فيما يلي تفسيراً اخر للمركب .

اولا لا بد للذهان* من استعداد نفسي وحساسية خاصة . وقد تكون ذلك عند العبريين اولاً من شئئين : ممارسة التجارة وتضخم الانا الاعلى او الضمير . فمن المسلم به ان التاجر بما يحيط به من قلق وتشرذم وحياة ارقامية ذهنية مجردة اكثر عرضة من الفلاح او الحرفي للهزات النفسية . وقد ولد هذا الشعب التجاري في ظروف قاسية اضطرته الى عبور الصحراء مرتين . القيام بذلك ومواجهة العدو تلو العدو تطلب خضوعاً مطلقاً لقيادة حكيمة ، لم تجد امامها غير ان تشد ازر تابعيها بسلسلة من التوجيهات الامرة والناهية بعضها عملي وبعضها خرافي تطري . بمرور الزمن استبدل الشعب عبء حياته اليومية بعبء التنظيم الاخلاقي الذي نسيت اصوله . لقد اصبح ضميراً لا شعوريا متضخماً .

ترتبط مأساة الشعب العبري ارتباطاً وثيقاً بفكرة الخلود التي رادها وهام بها انسان الشرق الاوسط . وبينما سعى ابن مصر وبابل الى تحقيق الخلود لذاته فاغبط الاول بعالم الاموات الرغيد وثبقي الثاني بادراكه عقم المحاولة ، اضطر العبريون تحت الضغوط والاحطار الى السعي وراء خلود المجموعة . لا يمكننا ان نتصور احدا يسعى للبقاء بنفسه في معزل عن المجموعة في متاهة سيناء . هناك غرست بذرة خلود الشعب وتغذت بروح العصبية القومية تحت الضغط العالي وانعكست في الفولكلور العبري . وما اظننا بحاجة الى شاهد فيكاد يرتبط اسم اسرائيل بالابد والخلود حيثما وجدناه في العهد القديم . انما يجدر بنا ان نشير الى مدى تأثير ذلك على قصة المسألة اليهودية والحركة الصهيونية . فقد اكد مفكرو الحركة الصهيونية على خلود الشعب اليهودي وضرورة ذلك وأشار حتى الملحدون منهم مثل سمولنسكي وللينبلوم الى « الشعب المقدس » . ودافع لوزاتو في القرن المنصرم عن اهمية خلود الشعب اليهودي لانها تنطوي على خلود الله نفسه . وبعد ان اعترف بان الشعوب تولد وتنبث ثم تموت نفى تلك القاعدة عن الشعب اليهودي لانه « التجسيم الكامل للذات الالهية » (٤) .